

جامعة بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

المحاضرة السادسة: الكتابة

في مقياس التفكيكات لطلبة السنة الثانية ماستر

شعبة: النقد الحديث والمعاصر

إعداد الأستاذ الدكتور: بشير تاويريت

السنة الجامعية: 2020-2021

وإذا كانت اللغة مبنية على الاختلاف، فإن النص الأدبي أو الفلسفي يقوم هو الآخر على أساس جملة من الاختلافات، وهذا يعني أن الكتابة هي الأخرى ما هي إلا عملية إظهار وتجسيد لتلك الاختلافات كونها هي العملية الوحيدة التي تستعمل اللغة كوسيلة للعب بالمعاني داخل النصوص المكتوبة التي تجسدها. ولقد كانت الكتابة من المقولات الأساسية التي ناقض بها دريدا الفكر الغربي الذي كان يمجّد الصوت والكلام ويتمحور حول مقولات العقل الجامدة التي لا تتعدى الذات.

إن الكتابة من منظور تاريخي، تدل على مراحل تطور الفكر الإنساني منذ أقدم العصور ومن ثم كانت الكتابة هي الموروث الحضاري الذي نعود إليه كلما دعت الحاجة. والمتأمل في تاريخ البشرية يجد أن الحضارات القديمة قد أكدت وجودها بحرصها على الكتابة وإن اختلفت مظاهر هذه الكتابة بين النقش على الحجر أو الجلد.

والواقع أن الكتابة في منظور الفلاسفة الغربيين لم تحظ بعناية فائقة فلا تعدو أن تكون مجرد تشويه للحقائق، ذلك أنها تقوم على ضروب من المراوغة والرمزية التي تموه الحقائق، "وقد عبر الفلاسفة عن كرههم للكتابة لأنها تدمر سلطان الحقيقة الفلسفية"<sup>(1)</sup>، ذلك أن الحقيقة التي ينشدونها تقوم على أفكار مجردة ورأوا أن الكلمة المنطوقة وحدها لها القدرة على نقل هذه الحقائق كما هي، فالفكر ومنذ نشأته يقوم على (مركزية الصوت)، أي أن الكلمة المنطوقة أقرب إلى هذا الفكر من الكلمة المكتوبة ذلك أنها تمثل "الحضور الكامل للعالم"<sup>(2)</sup>. وفي مواجهة الفكرة القائلة بمركزية الصوت من ميتافيزيقا الحضور يأتي جاك دريدا بما أصطلح عليه بـ (الغراموتولوجيا) ويقصد بها (علم الكتابة) وهو عنوان لأحد كتبه المهمة أصدره عام 1967، حيث قام بدحض كل الحجج التي تقول بأفضلية الكلام على الكتابة. وقد توصل دريدا بعد دراسة تفكيكية لعدد من الكتابات من مثل محاوراة أفلاطون وفيدروس، ومذكرات جون جاك روسو إلى أنه "إذا كان الكلام إطاراً للحضور والهوية والوحدة والبداهة، فإن الكتابة إطار الغياب والاختلاف. والتعدد والتباين"<sup>(3)</sup>، وفي ذلك نقض لمركزية الصوت.

(1) رمان سيلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ص 137.

(2) المرجع نفسه، ص 136.

(3) ينظر: عبد الله إبراهيم وآخرون: في معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص 130.

لقد استمد دريدا هذه الأفكار من خلال الدراسات اللغوية الضاربة في القدم وذلك في تفريقها بين اللغة والكلام والكتابة والصوت وغيرها من الثنائيات التي قدمها العالم السويسري فرديناند دي سوسير، فقد أشار دريدا إلى عدم المطابقة بين الكلمات ومفهومها سابقا في الوجود، وإلا كيف وجدت لغات مختلفة<sup>(4)</sup>. وفي هذا نفي لميتافيزيقا الحضور، وهو بهذا الرأي يكون دريدا عمل على قلب التفسيرات التي تقول بشفافية اللغة، في فكرة مختصرة مؤداها أن اللغة لا تمثل الأشياء ذاتها بل تمثل مفاهيمها "فصوت لفظ شجرة لا يشير إلى شجرة مادية أو شجرة معينة بل يحيل على مفهوم الشجرة"<sup>(5)</sup>، وفي هذا إلغاء للعلاقة بين العلامة وما تشير إليه وهو شيء من شأنه أن ينقص مصداقية الكلام وتأكيد أهمية الكتابة، لأنها تحقيق للعلامة.

لقد انطلق دريدا في نقض مركزية الصوت من خلال الأطروحة السويسرية الرامية إلى نفي التطابق بين الأشياء ومسمياتها (اللغة). وقد أكد جونثان كولر أن الكتابة تقدم اللغة بوصفها سلسلة من العلامات المرئية التي تعمل في غياب المتكلم، فهي على نقيض الكلام تتجسد عبر نظام مادي من العلامات، بينما يقتصر الكلام على الصوت ولأن الكلام يختفي باختفاء المتكلم فهو لا يمتلك خاصية البقاء.<sup>(6)</sup>

لقد جعل هؤلاء الكلام أداة شفاقة للتواصل في حين أن الكتابة واسطة غير مباشرة وملوثة؛ لأنها تمثل حالة غياب تام للمعنى بغياب المتكلم، إذن المتكلم مشحون بالحضور في حين يحتل الحضور في الكتابة مكانة ثانوية.

إن ثنائية الحضور/الغياب، تمثل لب استراتيجية التفكيك، إذ بواسطتها قرأ دريدا إقرافات جون جاك روسو من خلال المفهوم الذي لجأ إليه ليعبر عن العلاقة بين الكتابة والكلام وهو ما اشتقه من (ملحق) تكملة (Supplément) حيث يقول "إن الفعل (Supplier) يشير أيضا في اللغة الفرنسية إلى الإكمال والاستبدال"<sup>(7)</sup>، ومعنى ذلك أن الكتابة تكمل الكلام وهي في الوقت نفسه تحل محله.

(4) عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، ص109.

(5) عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، ص111.

(6) ينظر: عبد الله إبراهيم: في معرفة الآخر، ص132.

(7) رمان سيلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ص138.

إن الغياب وحسب - ما سبق- يدخل مع بداية الكتابة المكملة للكلام وفي هذا يؤكد دريدا في مناقشته لاعتراقات روسو بأن: "الكتابة هي التي أتاحت للآخرين فرصة التعرف عليه كما هو، أو على ما يسميه هو "ذاته الداخلية" أو الحقيقة التي لا تتبدى في الحضور- إلا في العلامات المكتوبة"<sup>(8)</sup>. إن هذه العلامات المكتوبة تكمل ما تركه العلامات المنطوقة من نقص وفراغات وهنا تعمل ثنائية الحضور/الغياب عملها لانفتاح الدلالة اللانهائية وتحقيق المعنى الناقص. إن الهدف من دعوة دريدا إلى الكتابة هو نقض مركزية الصوت، والأثر "هو القيمة الجمالية التي تجري وراءها كل النصوص..."<sup>(9)</sup>، هو أحد النتاجات الأساسية للكتابة من خلال اللغة الإيحائية والإستعمال المتميز لها. ويهدف التفكير إلى تصيد الأثر في الكتابة ومن خلالها ومعها<sup>(10)</sup>، وتمتلك الكتابة خاصية غير موجودة في الكلام تتمثل في قدرتها على الإنتقال من مرجع إلى آخر (تعدد السياقات)، وإمكانية رصدها مع علامات أخرى لنتنوع دلالاتها في كل سلسلة جديدة من العلامات. إن هذه المزايا التي تجدها الإشارة في الكتابة وتفنقدها في الكلام لهي أكبر دليل على بطلان فلسفة الحضور في الميتافيزيقا الغربية ومركزية الصوت التي تعتمدها.

لقد كانت الكتابة في نظر الفلسفة الغربية فعلا خطيرا فهي "شيء مرادف للشر والعدوان وضرب من التهديد الخارجي لعالم أولي بسيط يعيش متزامنا ومتطابقا مع وجوده المباشر الذي لا يكاد يتجاوز حاجاته اليومية والتي تؤكد له ثقافته الشفاهية من خلال رؤية جمعية بالغة التبسيط وربما خالية من كل مظاهر التفرد والخصوصية من جهة أخرى"<sup>(11)</sup>. غير أن دريدا عمل على قلب هذا التصور المعادي للكتابة، حيث أماط اللثام على بعض الجوانب الإيجابية للكتابة والتمايز بين الأفراد، في ذلك قضاء على كل أشكال التجاوز، أو الحضور المباشر الذي يختزل كل الذوات الأساسية في نموذج واحد يجمع كل خصائصها وعلى النقيض من ذلك تساعد الكتابة على التمييز وإبراز الاختلاف بين أفراد المجموعة

(8) عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، ص130.

(9) عبد الله محمد الغدامي: الخطيئة والتكفير، ص53.

(10) بسام قطوس: استراتيجيات القراءة، التأصيل والإجراء النقدي، ص29.

(11) محمد على الكردي: الصوت والتفكير، مجلة علامات في النقد، ص133.

البشرية لأن اكتشاف الأنا لا يتم إلا من خلال الآخر، إنها مقاومة الحنين إلى العودة إلى البدائية الأولى والبحث عن آفاق جديدة لم تطأها أقلام الكتاب من قبل.

إن الكتابة تساعد المقهورين على استرداد ذواتهم وتمكن الشعراء من الوصول إلى الحقيقة الغائبة عن طريق السفر الدائم من خلال اللغة التي تحمل طابع الأسرار والتكتم وتسمح بقول ما لا يقال. لقد تجاوزت الكتابة النطق " وبذلك تسبق حتى اللغة وتكون اللغة نفسها توليدا ينتج عن النص"<sup>(12)</sup>. فاللغة إذن تنتج عن فعل الكتابة، لأن تلك العلامات اللغوية هي إحدى الاختيارات التي تصنعها الكتابة للتعبير عما تريد "واللغة دائما تكتب بشبكة من الاستدلالات، والرسوم المختلفة حيث لا يمكن أبدا أن يحيط بها الفرد المتكلم"<sup>(13)</sup> فالكتابة إذن ليست "وعاء لشحن وحدات معدة سلفا، وإنما هي صيغة لإنتاج هذه الوحدات وابتكارها"<sup>(14)</sup>. الكتابة طريقة تشكيل جديدة لهذه الوحدات اللغوية داخل نسق جديد وهي عملية ابتكار وإعادة صوغ للوجود.

إن الكتابة - في التصور التفكيكي- تتجاوز الدلالة التدوينية (الخطية) المبسطة إلى مفهوم أوسع، يقوم على أن النص أفق مفتوح متغير ومتجدد باستمرار، والقارئ هو الذي يمتلك سلطة توسيع هذا الأفق وكتابته بصورة تأويلية متغيرة مع كل كتابة، فبعد تدمير سلطة المؤلف يكتسب القارئ حق إعادة كتابة ذلك النص " فالنص ليس له وجود إلا عندما يتحقق، وهو لا يتحقق إلا من خلال القارئ، ومن ثم تكون عملية القراءة هي التشكيل الجديد لواقع (معطى) مشكل من قبل هو العمل الأدبي نفسه"<sup>(15)</sup>، فقد أدرك علماء النص منذ القديم أهمية القارئ في تحقيق الوجود الأدبي، وأصبح للقارئ فيما بعد الأهمية الأولى في إعادة كتابته، بعد أن كان المؤلف وحده يملك حق نسبة النص. فالمتلقي ليس مجرد مستهلك سلبي للنص، بل هو قطب في إنتاج النص، ولأن القارئ يعيش نفس معاناة المبدع في لحظة إنتاج النص فهو يبحث عن شكل لغوي جديد يحتضن حركة الصراع التي تعتمل في الداخل،

(12) عبد الله إبراهيم: في معرفة الآخر، ص 133.

(13) كريستوفر نورس: التفكيكية بين النظرية والتطبيق، ص 36.

(14) بسام قطوس: استراتيجيات القراءة، التأصيل والإجراء النقدي، ص 28.

(15) نبيلة إبراهيم: القارئ في النص، مجلة فصول، عدد خاص بالأسلوبية، ص 111.

فتأتي الكتابة لتستوعب جميع المفارقات والتناقضات التي يزخر بها الواقع، فالكتابة هي فعل موازي للقراءة ناتج عن فعل النص<sup>(16)</sup>.

لقد أخذت الكتابة أهميتها عند التفكيكيين وتجاوزت الدور المنوط بها في إكمال النقص الذي يتركه الكلام إلى البحث عن معاني أكثر حرية حتى تصل إلى علامات تقاوم كل تقرير وتسعى للانفتاح أكثر فأكثر، فيصبح النقد كتابته على أنقاض كتابة أخرى، وفي هذا السياق يصف بارت الكتابة بأنها "هدم لكل صوت ولكل أصل، فالكتابة هي هذا الحياد، وهذا المركب، وهذا الانحراف الذي تهرب فيه ذواتها، الكتابة هي السواد والبياض الذي تنفيه فيه كل هوية، بدءاً بهوية الجسد الذي يكتب"<sup>(17)</sup>. الكتابة بهذا المعنى هي تعبير عن التفرد والتميز الإنساني من خلال احتوائها على عذابات المبدع، إنها تقيم علاقة حوارية مع القارئ من خلال انفتاحها.

إن الكتابة عبارة عن فعل اطرادي لا يعرف التوقف، دائم البحث عن معانٍ أكثر تعدداً وعن آفاق أكثر اتساعاً وعن معنى اللامعنى، فلم تعد مهمة القارئ تقرير أفكار وحقائق جاءت في النص لأن الكاتب الأول سبقه إلى ذلك. ولكن في أن يشتق من الخطاب معنى جديداً، وفي أن يأتي بلغة ثانية تكاد أن تكون لغة ذلك العمل ولكنها تتميز عنه. إنها الحرية في قراءة النص وإعادة كتابته لينمو بعد ذلك بالابتعاد عن كاتبه، والكتابة أكثر من هذا في تصر رولان بارت "تهشيم للعالم (الكتاب) وإعادة لخلقه"<sup>(18)</sup>، إنها استعمال متميز للغة ذاتها لتغرق في الرمزية والغياب المؤجل.

وإذا كان الطرح النقدي القديم قد اقتصر فهمه للكتابة على أنها مجرد عملية سبك محكمة للألفاظ والكلمات، وفق تقنيات جمالية معينة على الورق، أو أنها عملية نقش وتخطيط وتدوين للأفكار والمعاني في شكل مفردات على الورق، فإن التفكيكيين قد نظروا إلى الكتابة من منظور آخر، حيث منحوها مهمة المحافظة على تحقيق الوجود الأدبي وضمان استمراره عبر الزمن، وذلك لأنها تتطلب فعلاً مميزاً في التلقي قائماً على القراءة

<sup>(16)</sup> عبد الله محمد الغدامي: تشريح النص، مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص79.

<sup>(17)</sup> رولان بارت: نقد وحقيقة، ص15.

<sup>(18)</sup> المرجع نفسه، ص15.

والنقد والاعتراض، وعدم الإكتفاء بما يوصل إليه من المعاني والدلالات. والقارئ في ضوء هذه الكتابة هو مشارك فعال في صنع النص وفي إنتاجه، ولقد أخذت الكتابة في عرف التفكيكيين دورا كبيرا تمثل في تجاوز النقص الذي اعتري سلطة الكلام أو الحلول محله، حيث تناها التفكيكيون - كما سبق أن أشرنا- لنقض الفكر الغربي المتمركز حول ميتافيزيقا الحضور وسلطة العقل.

إن الكتابة دعوة للدخول إلى المجهول، تغري الكاتب والقارئ كي يسعى إلى كشف ما هو خفي بأسلوب لغوي جديد قائما على الرمزية والانفتاح والتعدد. ولعلنا نصل في الأخير إلى أن التفكيكيين قد طاردوا المعنى والدلالة بثتى الوسائل، وكانت الكتابة من أهم الوسائل والاستراتيجيات التي استعملوها كونها تمثل إنتاجا إبداعيا باقٍ لا يزول، في وجه المعنى الغائب لتستمر عملية المطاردة له، وفق مبدأ اللعب الحر بين الدال والمدلول.